خليص في التاريخ المنسي (١٣)

محمد علي الشيخ

قراءة في الذاكرة

تمثل خليص " الفضاء المكاني " ذات الموقع الديني والتجاري على طريق الهجرة بين مكة والمدينة ، لذا يستأثر مثل هذا الموقع بالأنشطة السكانية : ومن تلك الأنشطة ظاهرة (المقاهي) باعتبارها رافدا اقتصاديا وتجاريا ، وحاجة اجتماعية .

ومن غير المعلوم والمتحصل في خليص الداخل ، سوى قهوة (سعيد العود) هذا مسماها ؛ حتى هرمت وطواها النسيان . ولم تجر محاولة إحيائها .

هذه القهوة التي كانت بجوار المسجد ؛ كهامش على نص مقدس ، لم تكن حدثا طارئا ، ونقطة على خارطة المكان فقط ؛ بل كانت معلما من معالم السوق ، وشاهدا على وعي (النخب) الخليصية باختيارات الناس ، وتنويعات المناشط المهنية .

وإذا كانت معطيات بناء المقاهي مفهومه - سواء على الطريق العام ، أو على تقاطع الطرق عند بوابة غران ، أو بخليص الداخل ؛ فإنها في باقي القرى ، لا يمكن فهمها إلا من زاوية كونها حاجة اجتماعية .

في هذه السردية يعترضنا سؤالان : سؤال (المسمى) وسؤال (القبول) لنتفق أولا : ان الدلالة غلبت المكان ؛ فسمي بإسم محتواه . لذا يجوز لنا القول : أن (القهوة) دخلت مكة عابرة من اليمن برفقة الحجاج سنة (٨٠٠) هجرية (١٤٥٦) ميلادية . وللقهوة حكاية بين (التحليل والتحريم) لا يفقهها إلا العارفين بأخبارها والمتابعين لسيرتها . نحيلكم لثلاثة مصادر للراغبين في الإستزاده :

١ - تاريخ القهوة العربية . تأليف محمد غبريس .
٢ - من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي . تأليف محمد الأرناؤوط .
٣ - رسالة في الشاي والقهوة والدخان . تأليف الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي .
٤ - غواية الإسم = سيرة القهوة وخطاب التحريم . تأليف الدكتور سعيد السريحي .

والغريب أنها انتشرت بداية في مجالس العلم والعبادة ؛ ثم انتقلت لتجمعات أهالي الأحياء - بعد الصلوات للتسامر وتبادل الأخبار . ولعل نفور شرايح من المجتمع منها يعود إلى زمن تحريمها ، وفيما بعد إلى نوعية روادها .

وبقي مسمى (قهوة) مرتبط بها رغم تنوع مشاربها . ولقد كانت - ومازالت مقاهي مصر تنصب نفسها رائدة - ونحسبها كذلك - في هذا المنشط الاجتماعي والثقافي : وأقدمها الفيشاوي ، وأشهرها (الريش) ويعد من رموز وسط القاهرة الثقافية والتاريخية ، وملتقى الكتاب والمفكرين مثل نجيب محفوظ ، ونحن الآن نسعى لتوطين هذه التجربة ، وجعل المقاهي منصات ثقافية واجتماعية .

وللمقاهي مخرجات كثيرة . نشير هنا إلى أنه صاحب انتشارها بشكل واسع ظهور (القهوجي) كصاحب مهنة . وأنها استقطبت وافدين جعلوا من المهن الشائعة والمجانية صنائع ربحية .

في قريتي (أم الجرم) وفي قهوة (العنبوسي) بالتحديد : كان (ابن ماوي) جندي هارب من الجيش التركي ، شاعرا ، وحافظا للشعر ، كان يروي الشعر بمقابل . و(حسين الهندي) مارس الحلاقة والختان بأجر معلوم . وكان (العنبوسي) نفسه : يروي فصولا من سيرة عنترة ، وأبو زيد الهلالي .

لقد سهلت المقاهي إقامة مريحة ومربحة . واستثمرت وجودهم للدعاية وزيادة الرواد والسمار !!! وحول سائقي الشاحنات (البوري – والحضرمي) تتجمع شرائح اجتماعية متنوعة ؛ لقد كانت المقاهي منصة إعلامية : للمستجد من الأخبار ، وسرد الرواة ، وسماع الأغاني ، وترويج الشائعات !!!
تلك أسماء كانت وماتزال في ذاكرة القرية غير منسوبة ، وغير مسائلة . وتلكم هي تجليات التعانق والتعالق بين مكة وأطرافها . يغنيك شرف المقصد عن سؤال المهاجر ...

محمد علي الشيخ